[رؤى كَـاتِب]

مَا تَبَقَّى

سكنَ كلُّ شيءٍ إلا عويلُ الريحِ وهي تمرُّ بينَ البيوتِ المحطمةِ. لا يكسرُ صمتَ الحطامِ في المدى إلا صوتُ خطواتِ ياسين فوقَ ركامِ كَنْعانَ.

وقفَ وحيداً، وبقايا الجدرانِ تنهارُ أمامَ عينيهِ ببطءٍ؛ أثرُ ضربةٍ غادرةٍ لم تتركْ حجراً على حجرٍ. كأنَّ ما تبقى من البيوتِ يتنهدُ أنفاسَهُ الأخيرةَ قبلَ السقوطِ المريعِ.

استنشقَ الهواءَ؛ فغصَّ بحلقهِ طعمُ معدنٍ صِديءٍ...

رائحةُ ترابٍ، وبارودٍ، ودماءٍ دافئةٍ لم يجفَّ عطرُها بعدُ... ذراتُ الغبارِ العالقةُ في الجوِّ بدتْ كأرواحٍ حائرةٍ ترفضُ مغادرةَ غرفِها، تلتصقُ بثوبهِ الأسودِ وتدخلُ في مسامِ جلدهِ كأنها وداعٌ أخيرٌ.

رفعَ عينيهِ ببطءٍ...

رأى بقايا جدارٍ مائلٍ لفصلٍ دراسيٍّ... هناكَ، كُتِبَتْ جملةٌ ناقصةٌ بخطٍّ طفوليٍّ مهتزٍّ: "اليومَ نكتبُ عن..."؛ وبترتِ الشَّظايا الكلمةَ الأخيرةَ، وتركتْ بدلاً منها ثقباً أسودَ يبتلعُ الأحلامَ...

وتحتَ الجملةِ، رأى رسماً لشمسٍ مبتسمةٍ على مقعدٍ مكسورٍ، تلمعُ ببهاتةٍ وسطَ الغبارِ، كأنها تلمعُ لمرّةٍ أخيرةٍ قبلَ أن تنطفئَ.

انشقَّ السحابُ الرماديُّ فجأةً، وهبطَ شعاعُ ضوءٍ حادٍّ ليستقرَّ فوقَ يدٍ صغيرةٍ مغبرةٍ تبرزُ من تحتِ الأنقاضِ. انحنى ياسين... وشعرَ برعدةٍ تضربُ أعماقهُ...

كانتِ اليدُ لا تزالُ تحتفظُ بليونتِها، لم تتصلبْ بعدُ. حاولَ رفعَ الأحجارِ، لكنَّ الحجارةَ كانتْ ثقيلةً كأنها تعانقُ الصغيرَ في نومتهِ الأخيرةِ...

استوقفهُ انقباضُ تلكَ اليدِ... أصابعُها لم تكنْ مرتخيةً... بل كانتْ تقبضُ على شيءٍ ما بحرقةٍ، كأنها تمسكُ بآخرِ خيطٍ في الحياةِ.

ركعَ ياسين على ركبتيهِ...

وجفَّ ملحُ الدموع في عينيهِ حتى أحرقَ جفونهُ...

مدَّ يدهُ وترددَ؛ كانَ الصمتُ حولهُ ثقيلاً لدرجةِ أنَّ صوتَ أنفاسهِ صارَ يشبهُ النحيبَ.

فتحَ أصابعَ اليدِ الصغيرةِ بحذرٍ مُوجعٍ... لم يجدْ قلماً.. بل وجدَ بذرةً يابسةً، انتُزِعَتْ من أرضٍ حُرِمَتِ المطرَ. رفعَها، وفي تلكَ اللحظةِ، سقطَ حجرٌ من الأعلى، فارتجفَ المكانُ.. ثم عادَ السكونُ لِيخنقَ الأنفاسَ.

نظرَ إلى اليدِ مرةً أخرى...

عندما ارتختِ الأصابعُ وسقطتْ فوقَ الترابِ، كأنَّ ما كانتْ تقبضُ عليهِ لم يعدْ يعني لها شيئاً... ظلَّ يحدّقُ لثوانٍ طويلةٍ، قبلَ أن يندفعَ مرة أخرى يزيحُ الحجارةَ بلهفةٍ يملؤُها خوفٌ لا يريدُ الاعترافَ بهِ.

كانَ يبحثُ عن نبضٍ، عن صرخةٍ، عن أيِّ علامةٍ تُخطئُ فيها النهايةُ طريقَها...

لكنَّ الحفرَ لم يقدْهُ إلا لبرودةِ معدنٍ قاسٍ؛ علبةٌ صغيرةٌ كانتْ تنامُ تحتَ صدرِ الصغيرِ مباشرةً.

فتحَها بيدينِ ترتجفانِ. وجدَ داخلَها عشراتِ البذورِ.. ساكنةً، صامتةً، كأنها تنتظرُ شيئاً لن يأتي.

توقّفتْ حركتُهُ. نظرَ إلى البذرةِ في يدهِ.. ثم أعادَها إلى مكانِها بينَ رفيقاتِها، وأغلقَ العلبةَ ببطءٍ، كأنَّهُ يخشى أن يوقظَ شيئاً نائماً في الداخلِ.

جلسَ ياسين فوقَ الرمادِ. قلبهُ يثقلُ في صدرهِ، والعلبةُ بينَ يديهِ. أطبقَ عليها حتى انغرستْ حوافُّها في جلدهِ، ولم يتركْها. رفعَ رأسهُ نحو الأفقِ البعيدِ؛ الغبارُ لا يزالُ يرتفعُ، والريحُ تعودُ من بينِ الخرابِ كأنها تحفظُ الطريقَ.

ظلَّ ساكناً.

وفي قبضتِه...

حيثُ استقرتِ البذورُ في عتمتِها الصامتةِ...

كانَ شيءٌ واحدٌ فقط

قد بدأَ يَنبُتُ.

بقلم اسامة ابراهيم

[رُؤى كَـاتِب] الإسكندرية/ (مارس ٢٠٢٦) جميع الحقوق الأدبية محفوظة©